الفصل الثّالث

قراءةٌ نقديّةٌ في "موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة" لـ "محمّد راتب النّابلسي"

obeikandl.com

obeikandl.com

يعرض النّابلسي في مقدّمات الكتاب "١" فهمه الخاصّ لمصطلحات الإعجاز -العلم- القرآن والسّنّة.

أوّلًا- عرض مقدّمات الكتاب:

*الإعجاز:

يعرض النّابلسي لأفكاره حول التّوحيد والسّببيّة والمعجزة معتمدًا على مقولات المذهب الأشعريّ في العقائد:

"من اعتقد أنّ الأسباب وحدها تخلق النّتائج، ثُمّ اعتمد على الأسباب وحدها؛ فقد أشرك.""٢"

"الأسباب وحدها لا تقود إلى النّتائج إلّا بمشيئة الله.""٣"

فالمعجزة -من وجهة نظر الكتاب- هي البرهان على صدق النّبوّة: "وهنا تأتي المعجزة؛ لتكون برهانًا على صدق إرسال النّبيّ ومصداقيّة منهجه.""٤" فالدّليل على صدق النّبوّة دليلٌ خارجيٌّ "والمعجزة في بعض تعاريفها خرقٌ لنواميس الكون ولقوانينه، ولا يستطيعها إلّا خالق الكون؛ لأنّه هوالّذي وضع القوانين والنواميس." "٥" "والمعجزة ممكنةٌ عقلاً،غير مألوفةٍ ٥قعادةً، فهناك فرقٌ بين أن يحكم العقل على شيءٍ باستحالته، وأن يعلن عجزه عن فهم هذا الشّيء.""٦" ثُمّ يستدرك قائلًا: "فالنّاس يخاطبون عادةً بأصول الدّين، والمؤمنون يخاطبون

بفروع الدّين، والحديث عن المعجزات من فروع الدّين إذا كان الأصل مهتزًّا، فلا جدوى من الحديث عن المعجزات." "٧"

ويميّز الكتاب بين معجزاتٍ حسّيّةٍ محدودةٍ بالزّمان والمكان، وهي معجزات الرّسل السّابقين" إذًا معجزاتهم كتألّق عود الثّقاب، وقعت مرّةً واحدةً، وأصبحت خبرًا يصدّقه من يصدّقه، ويكذّبه من يكذّبه""٨" وبين معجزةٍ مستمرّةٍ "هي آيات الإعجاز العلميّ في الكتاب والسّنَّة"، "أمّا نبيّنا محمّد -صلّى الله عليه، وسلّم- الّذي هوخاتم الأنبياء والمرسلين، وأرسل إلى النّاس كافّةً بشيرًا ونذيرًا، فينبغي أن يكون من معجزاته ما هومستمرّ؛ لذلك كانت آيات الإعجاز العلميّ في الكتاب والسّنّة معجزةً علميّة نصيّةً.""٩"

وبذلك يصل النّابلسي إلى بيت القصيد"المعجزة العلميّة النّصيّة"، ويشير إلى ١٣٠٠ آيةٍ تتحدّث عن الكون وخلق الإنسان في القرآن الكريم "وهذه الآيات تقترب من سدس القرآن." "١٠" ويرى الكتاب أنّ آيات الكون تقتضي" التّفكّر ولحكمةٍ إلهيّةٍ بالغةٍ لم يفسّر النّبيّ صلّى الله عليه، وسلّم-هذه الآيات، ولوفسّرها تفسيرًا يفهمه من سيأتي بعده؛ لانغلق هذا التّفسير على من حوله؛ لذلك تُركت هذه الآيات للعصور اللّاحقة.""١١"

*العلم:

يُعرّف النّابلسي العلم بما يلي: "والعلم كما يرى بعض العلماء، علمٌ بالله، وعلمٌ بأمره، وعلمٌ بخلقه، أوعلمٌ بالحقيقة وعلمٌ بالشّريعة وعلمٌ بالخليقة.""١٢"

ويُدعّم وجهة نظره حول العلم بالله بآياتٍ قرآنيّةٍ تحضّ على التّفكّر في خلق الله: " قل انظروا ماذا في السّموات والأرض وما تغني الآيات والنّذر عن قومٍ لا يؤمنون." يونس ١٠١ وأمّا عن العلم بأمره، أي: علم الشّريعة- فيرى أنّ" الشّريعة عدلٌ كلّها، ورحمةٌ كلّها، ومصالح كلّها، وحكمةٌ كلّها." "١٣" ويدعم وجهة نظره بحديث للبخاريّ: "من يُرد الله به خيرًا يفقّهه بالدّين" أمّا الفرع الثّالث من العلوم -وفقًا للكتاب- فهوعلم الخليقة -أي: العلم بخلقه-: "وتعلّم العلوم المادّيّة، والتّفوّق فيها قوّةٌ، يجب أن تكون في أيدي المسلمين؛ ليجابهوا أعداءهم أعداء الحقّ وإلخّير والسلام؛ تحقيقًا لقوله -تعالى-" وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّةٍ ومن رباط إلخّيل ترهبون به عدوالله وعدوّكم" الأنفال ٦٠

*القرآن والسّنّة:

يُميّز النّابلسي بين أنواع الإعجاز في القرآن الكريم بين إعجازٍ بلاغيٍّ وتاريخيٍّ ومستقبليٍّ وتشريعيٍّ وأخيرًا -موضوع الكتاب- الإعجاز العلميّ.

ويرى أنّ "الإعجاز هوإخبار القرآن الكريم أوالسّنّة النّبويّة بحقيقةٍ أثبتها العلم التّجريبيّ، وثبت عدم إمكانيّة إدراكها بالوسائل البشريّة في زمن الرّسول." "١٤" ويرى " أنّ المعجزة القرآنيّة -بما تتضمّنه من حقائق العلميّة- دليلٌ على عالميّة الرّسالة الإسلاميّة." "١٥" ويميّز كذلك بين التّفسير العلميّ والإعجاز العلميّ؛ "فالتّفسير العلميّ هوكشفٌ عن معاني الآية أوالحديث، في ضوء ما ترجّحت صحّته من حقائق العلوم الكونيّة، أمّا الإعجاز العلميّ فهوإخبار القرآن الكريم أو السّنّة النّبويّة بحقيقةٍ أثبتها العلم التّجريبيّ أخيرًا، وثبت عدم إمكانيّة إدراكها بالوسائل البشريّة ، في زمن الرّسول." "١٦"

ثم يبيّن النّابلسي المنهج الّذي اعتمد عليه في كتابة -الموسوعة-، فيرى أنّه: " لا يمكن أن يقع صدامٌ بين قطعيٍّ من الوحي وقطعيٍّ من العلم التّجريبيّ، فإذا وقع في الظّاهر؛ فلابدّ أنّ هناك خطًا في اعتبار قطعيّة أحدهما، وهذه قاعدةٌ جليلةٌ قرّرها علماء المسلمين، وقد ألّف غير واحد من العلماء كتبًا تؤكّد حتميّة توافق العقل مع النّقل." "١٧"

ويكرّر الفكرة ذاتها بوضوحٍ أكبر:

"إذا وقع تعارضٌ بين دلالة قطعيّةٍ للنّص ونظريّةٍ علميّةٍ؛ رُفضت هذه النّظريّة؛ لأنّ النّص وحيٌ من الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علمًا، وإذا وقع التّوافق بينهما كان النّصّ دليلًا على صحّة تلك النّظريّة، وإذا كان النّصّ

ظنيًّا والحقيقة العلميّة قطعيّةٌ يؤوَّل النّصّ بها، وحيث لا يوجد مجالٌ للتّوافق؛ فيقدَّم القطعيّ." "١٨" ثُمّ يبيّن النّابلسي أوجه الإعجاز العلميّ، فيرى من بينها: "تصحيح الكتاب والسّنّة؛ لما شاع بين البشريّة في أجيالها المختلفة من أفكارٍ باطلةٍ حول أسرار الخلق." "١٩"

أمّا عن الضّوابط الّتي يُلزم بها النّابلسي نفسه في بحثه عن الإعجاز العلميّ في الكتاب والسّنّة، وسأوردها كلّها لأهميّتها في بيان وجهة نظره:

١- أن تراعي معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي، وأن تراعي القواعد النّحويّة ودلالاتها، وأن تراعي القواعد البلاغيّة وخصائصها، ولا سيّما قاعدة: "ألّا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلّا بقرينةٍ كافيةٍ."

٢- البعد عن التّأويل في النّصوص المتعلّقة بالإعجاز العلميّ في القرآن الكريم ودلالة نبوّة النّبيّ-صلّى الله عليه، وسلّم-.

٣- ألّا تُجعل حقائق القرآن موضوع نظرٍ، بل تُجعل الحقائق هي الأصل، فما وافقها قُبِل، وماعارضها رُفِض

٤- ألّا يُفسّر القرآن إلّا باليقين الثّابت من العلم، لا بالفروض والنّظريات الّتي ما تزال موضع فحص وتمحيص."٢"

ويتابع النّابلسي: ضبطه لمصطلح التّفسير العلميّ للقرآن والسّنّة ورافضًا:

١- إذا اعتمد على النّظريات العلميّة الّتي لم تثبت، ولم تستقرّ...

٢- ومرفوضٌ إذا خرج بالقرآن عن قواعد اللغة العربية ومدلولاتها زمن النّبيّ-صلّى الله عليه، وسلّم-.

٣-- ومرفوضٌ إذا صدر عن خلفيّةٍ تعتمد العلم أصلًا، وتجعل القرآن تابعًا.

٤- ومرفوضٌ إذا خالف ما دلّ عليه القرآن في موضعٍ آخر، أودلّ عليه صحيح السّنّة.

٥- ومرفوضٌ ممن هبّ، ودبّ من الّذين لم يتحقّقوا في أخذهم، ولم يتثبّتوا في إلقائهم، وهم يزعمون أنّهم على علمٍ، والعلم منهم براء.

٦- أن يكون التّطابق عفويًّا وتامًّا، لا مفتعلًا أومتكلّفًا.""٢١"

مع ملاحظة أنّ التّرقيم السّابق-لم يرد في الكتاب، وأنّ كاتب السّطور قد قام به؛ لسهولة المراجعة.

ومن ثمّ يبلغ طموح -النّابلسي- ذروته مؤكّدًا أنّه "بإمكان المسلمين أن يتقدّموا؛ لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصّحيح.""٢٢"

*ثانيًا-نقد مقدّمات الكتاب:

كيف ينظر النّابلسي إلى العلم، ما العلم، ومهمّة العلم؟! وذلك قبل الخوض في أيّ نقاشٍ حول إعجاز التّفسير العلميّ؛ فالعلم وفّق ما يعرضه النّابلسي، ليس هوالعلم كما تعارف، واستقرّ عليه المشتغلون فيه أنفسهم؛ فهو ليس بالقوانين الموضوعيّة القائمة على الاستنتاج العقليّ والقياس التّجريبيّ مثلًا؟! ولكن النّابلسي يملك فهمًا للعلم مختلفًا عن هذا، ويُورد الكتاب مثلًا: "الأسباب وحدها لا تقود إلى النّتائج إلّا بمشيئة الله." "٢٣"

إنّ القول السّابق يقع خارج حقل العلم، ومن الأفضل وَضْعه في مكانٍ آخر، وليس في كتاب يدَّعي العلم، لا بل يدَّعي أنّه قاهرٌ ومعجز العلم! إنّ العبارة السّابقة: " فالأسباب تقود إلى النّتائج" نفسها يستخدمها النّابلسي وغيره من رجال الدّين في إثبات وجود الله على اعتبار الله -سبحانه، وتعالى- كمسبّب الأسباب، فكيف يجري الطّعن بها؟!

وكذلك لا يسع أيّ إنسانٍ -عالمًا كان أم جاهلًا- إلّا أن يأخذ بها حتّى من دون التّصريح بذلك، فلكي يتقي برد الشّتاء؛ عليه تركيب مِدفئةٍ، ولكي تعمل المِدفئة؛ عليه شراء وقودٍ، ووضعه في الخزّان ومن ثَمَّ إيقاد النّار؛ كي تتحقّق نتيجة الدّفء. والاعتراض الموجّه من قبل المؤمنين لايُوقد المدفئة إلّا بمشيئة الله، ولن يفيدني من النّاحية العمليّة -مع احترام

للمشاعر الإيمانيّة وتقديرها- الأسباب تقود إلى النّتائج طبعًا ليس في صيغةٍ بسيطةٍ دائمًا، ولكن ضمن صيرورة احتماليّةٍ نسبيّةٍ تتدخَّل فيها عوامل متعدّدة؛ فوفقًا للمنهج العلميّ الأسباب تقود إلى نتائج عند فهم القانون الّذي نسلك فيه هذه الأسباب عبر طرق تشكّلٍ واحتمالاتٍ مختلفةٍ؛ للوصول إلى نتائج، وأمّا إضافة عبارة: "بمشيئة الله" فهذا يدخلنا في حقل الدّين والعقائد مع كلّ التّقدير للإيمان وخيارات الإنسان العقائديّة.

ولا دليل عليه -من داخل الحقل العلميّ-، كما لا دليل ضدّه في المقابل، ولواعتمد النّابلسي هذا الفهم -البدهي- للعلم؛ فلن يضير دراسته عن الإعجاز العلميّ شيئًا، لا بل جعلها أكثر رصانةً ممّا هي عليه.

نتابع مع النّابلسي: "من اعتقد أنّ الأسباب وحدها تخلق النّتائج، ثُمّ اعتمد على الأسباب وحدها؛ فقد أشرك." "٢٤"

التّعقيب:

هذا القول ينتمي إلى حقل الدّين واللاهوت، وليس حقل العلم، وهو قولٌ مثيرٌ للجدل عامّةً؛ فالحكم بالشّرك ليس بالأمر البسيط، وليس من الحكمة استسهاله؛ فقد يكون بوّابة لنفي الآخرين وإقصائهم جسديًّا ومعنويًّا. وأظنّ أنّ عنوان الكتاب "موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة" من المفترض أن يجعل القارئ يؤمن، أوأن يصبح أكثر إيمانًا بعد

قراءة الكتاب، وليس البحث في العقائد والشرك والتّكفير، وفي ذلك حيدٌ عن الغرض المفترض من الكتاب في الدّعوة إلى الله عبر إثبات "الإعجاز العلميّ."

سأعرض الآن لعلاقة الأسباب بالنّتائج -من منظورٍ عقائديٍّ يختلف عن النّابلسي-؛ نظرًا لأهميّة الفكرة وشيوعها:

الله خلق الكون والطّبيعة وفقًا لقوانين وسننٍ، واكتشاف الإنسان لهذه القوانين والسّنن مدخلٌ مهمٌّ لفهم الدّين وتعميق الإيمان، فهل من الضّروري أن يخرق الله قوانين الكون ونواميس الطّبيعة؛ كي نؤمن به؟! ولن أقف -في هذا السّياق- عند معجزات الأنبياء؛ فهي انقضت بانتهاء زمن الرّسالات.

*سأعيد صياغة قول النّابلسي السّابق بشكلٍ إيجابيّ وفقًا للمنظور الّذي عرضتُه أعلاه: "إنّ الله الّذي خلق الكون ونواميسه يحثّنا على التَّفَكّر في الكون، والبحث عن سنن خلقه؛ كي يكون إيماننا إيمان تفكّرٍ وتدبُّر، لا إيمان معجزاتٍ وخوارق."

*وفقًا للنّابلسي إنّ خرق القوانين والنّواميس يقوم بها الله حسنٌ، ولكن إرادة الله لاتتجلّى بشكلٍ مباشرٍ؛ فالله -تعالى- ليس مجسَّدًا في شخصٍ أوشيءٍ محدَّود؟!

ثُمّ إنّ إلخّرق يتمّ على يد بشرٍ، وبالتّالي يستطيع هذا الكائن البشريّ ادعاءه لنفسه، أي: أنَّهُ -هو- الّذي خرق هذه القوانين، ما يتبع ذلك من استثمارٍ متفاوتٍ، وقد يكون سلبيًّا إلى حدٍّ كبير!

مثالٌ افتراضيٌّ: "زيدٌ تحوَّل إلى ذبابةٍ"، وهذا خرقٌ واضحٌ لقوانين الكون، لكن عندما يعود زيدٌ إلى حالته البشريّة الأولى يقول لمشاهديه: أنا زيدٌ إلهكم- والعياذ بالله- أستطيع أن أخرق قوانين الكون الّتي تعرفونها؛ لأنّي أنا من صنع هذه القوانين، أوأنّ لدي قنواتٍ خاصّةً مع الله صانع هذه القوانين، إنَّ هذه القوانين صُنعتْ لأمثالكم! أحدهم سيقولُ: دجَّالٌ كافرٌ.

نفس المثال زيد بعد أن عاد إلى حالته البشريّة قد يقول لمشاهديه: أنا زيدٌ، وهذه معجزتي، أنا زيدٌ إنسانٌ صالحٌ وأحدُ أولياء الله.

وهذا يفتح أمامنا بابًا عريضًا للمدَّعين والدجَّالين والادِّعاءات المضادة، وإن كان أمثال هذا قليلًا في عصرنا، إلّا أنّه كان منتشرًا وبشدّةٍ في عصورٍ سابقةٍ من مدّعي إلخّرافات والمعجزات والنّبوّات، وكلّهم فاعلون اجتماعيّون ودينيّون وسياسيّون بدرجاتٍ متفاوتةٍ؟

وعودًا إلى بَدءٍ أقول: لا يمكن التحقُّق بشكلٍ موضوعيٍّ محايدٍ من هذا القول:" إنّ الله وحده يستطيع خرق هذه النّواميس!"

ليس المقصود من نقاشي رفض الإلوهيّة، ولكن إقرار مفهوم الإلوهيّة يتّفق مع البداهة والفطرة البشريّة، مفهومٌ إيجابيٌّ ينمّي المصالح المشتركة بين البشر، مفهوم:

١- يتفهّم الظاهرة الدّينية، ويدرس طرق تشكّلها كبعدٍ إنسانيٍّ وجوديٍّ، وليس كظاهرةٍ علميّةٍ؛ فالعلم والدّين حقلان منفصلان، ولكلٍّ منهما هويَّة.

٢- تجاوز علم العقائد الإسلاميّ من مستوى المفبركات وعلم الكلام إلى منظومةٍ معرفيّةٍ للعقائد، والإيمان قائمةٌ بذاتها غير متّكلة، وليست عالةً لاعلى العلم، ولا على غيره؛ فالعلم لا يؤدّي إلى نفي الدّين، والدّين لا يؤدّي إلى نفي العلم بالضّرورة ، والعلم لا يؤدّي للإيمان بدينٍ أوتصوّرٍ محدّدٍ دون غيره، بل يترك لنا الإجابة أمام احتمالاتٍ متعدّدةٍ؛ فلكلّ إنسانٍ منّا خياره الّذي ترتاح نفسه إليه، قد يعرضه على الآخرين من دون الادِّعاء باستملاك أرض الحقيقة، أوالعثور على كنز الوجود الأوحد.

*نعود إلى النّابلسي ولننظر إلى قوله "المعجزة ممكنةٌ عقلا غير مألوفةٍ عادةً."

التّعقيب:

هل ثمَّ فرقٌ كبيرٌ بين أن يحكم العقل على شيءٍ باستحالته، وأن يعلن عجزه عن فهم هذا الشّيء؟ ولنتساءل هل إحياء الموتى "معجزة

عيسى -عليه السّلام-" أوإبقاء حيٍّ لثلاثة أيّام في بطن حوتٍ "معجزة يونس -عليه السّلام-" ممكنٌ عقلًا وغير مألوفٍ عادةً ؟!

وفقًا للنّابلسي هذا ممكنٌ عقلًا!

من يتبنّى هذا الرّأي طالب أن يثبت لنا هذه الإمكانيّة وفقًا للعلم وقوانينه مع تحييدٍ كاملٍ للنّصوص المقدّسة، كونها مقدَّسة عند جزءٍ من البشر، وليس كلّ البشر، ولكون السّياق هنا علميًّا، وليس عقائديًّا إيمانيًّا، ولن يستطيع إلى ذلك سبيلًا!

لذلك يعمد إلى تعطيل العلم والمنطق البرهانيّ تحت مُسَمَّى المعجزة، فهل إحياء الموتى من الأمور الّتي يقبلها الإنسان وفق خبراته العلميّة المتراكمة عبر العصور، وإلى الآن -مع استثناء حالات الموت الظّاهريّ-"٢٥"، أم أنّ هناك موتى كثيرون عادوا إلى الحياة، وحدَّثونا عن القبر والجنّة والنّار...إلخ؟!

إنّ إحياء الموتى معجزةٌ وفق التّعريف العام لرواية النّابلسي، وهوبالتّأكيد شيءٌ غير مألوفٍ عادةً، وكونه ممكنًا عقلًا شيءٌ لا يمكن الجزم به، فلا يمكن فصل العقل عن إلخّبرات والتّجارب في الواقع، وبالتّالي لاينطبق عليها تعريف المعجزة الّذي عرضه، وألزم به نفسه.

إنّ واقعة إحياء الموتى لم نرها، ولم يجر توثيقها علميًّا، فكيف نحكم بوجودها، ومن ثَمَّ نقرّها كمعجزةٍ موجودةٍ، ولكنّها غير شائعة الحدوث وغير مألوفة!

ويرى النّابلسي أنّ المعجزات من فروع الدّين، والمؤمنون يخاطبون بفروع الدّين، وبالتّالي هويقرّ بأنّه يخاطب المؤمنين سابقًا بفروع الدّين وضمن المعجزة؛ لذلك لا داعي لسوق الحديث عن المعجزات في كتابه الإعجاز العلميّ أصلًا؛ فهذا لا يخدُم موضوع الكتاب، ولن يقنع غير المؤمنين بالإيمان!

*يستمرّ النّابلسي مشكّكًا: "فإذا كان الأصل مهتزًّا، فلا جدوى من الحديث عن المعجزات."

من المفترض أنّ القارئ -أيّ قارئ- لدى قراءة "موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة" سوف يُوقن، ويؤمن، وليس العكس؛ فهوقبل أن يعرض آراءه ومعجزاته العلميّة يقوم بضربةٍ استباقيّةٍ هدفها وضع المخالفين في خانةٍ "فإذا كان الأصل مهتزًّا، فلا جدوى." وكأنّه يأخذ بالكلام منحى قوله -تعالى-: "إِنَّ الّذينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ "٦" خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ "٧" "سورة البقرة طبعًا مع

اختلاف السّياق، فنقل صلاحيّات الهداية والضّلال إلى البشر، والاطّلاع على أسرار النّفوس، لايستقيم.

*إنّ الكتاب المدروس"موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة" يشكو من خللٍ منهجيٍّ مزدوجٍ:
١- استباق النّتائج قبل البدء في الدّراسة.
٢- ضعف المنهجيّة العلميّة الّتي من المفترض أن تميّز مثل هذه الأبحاث!

في الكتاب نجد ميلًا إلى مهاجمة الخّصوم، واستغلال غريزة وعاطفة التّديّن، لاحظ: "من اعتقد أنّ الأسباب وحدها تخلق النّتائج، ثُمّ اعتمد على الأسباب وحدها فقد أشرك"صـ٨، ولاحظ أيضًا: "إذا كان الأصل مهتزًّا، فلا جدوى من الحديث عن المعجزات." "٢٦"

وكذلك في معرض حديثه عن مرض الإيدز"... وهذا عقابٌ عاجلٌ في الدّنيا قبل عقاب الآخرة." "٢٧" "حينما تجاوزوا حدود الله –عز، وجلّ- ولم يعبؤوا بشرعه، ولم يعبؤوا بنظافة العلاقة الاجتماعيّة؛ عندئذ جاء هذا المرض؛ ليقلقهم، وليجعل حياتهم جحيمًا." "٢٨"...إلخّ.

فما ينقص النّابلسي-وغيره كثيرٌ من رجال الدّين- الموقف الأخلاقيّ والشّعور الإنسانيّ، فبغضّ النّظر عن مُسبِّبات المرض وهي ليست بالضّرورة الممارسات الجنسيّة غير المشروعة، فقد ينتقل الفيروس عن

طريق الدّم أو بالخطأ عند ذوي المهن الطّبيّة، وقد ينتقل للزّوج أوللزّوجة وللأطفال و..إلخ. أقول بغضّ النّظر عن مسبّبات المرض لايجوز الشّماتة بالإنسان المريض، وهذا سلوكٌ لاينسجم مع الفهم الحيويّ البنّاء للدّين وروح الإسلام، المطلوب دعم البحث العلميّ حول المرض وطرق العلاج في علاجه بدلاً من تدبيج الصّفحات في اجترار ماقيل سابقًا من كلام لا يحمل أيّة سمةٍ من سمات الإبداع والتّجديد.

فالعلماء الّذين يبحثون، ويجتهدون لعلاج الإيدز، هم خيرٌ لمجتمعاتهم من رجال الدّين الشّامتين بمصائب البشر، فهؤلاء-العلماء الحقيقيّون- ينقذون النّاس من المعاناة والموت والشّيخ النّابلسي وكثيرٌ من رجال الدّين للأسف يشمت في النّاس، ويقول: لهم هذا عقاب الله الّذي تستحقّونه بدلاً من أن يخفّف عنهم معاناتهم، ويدعمهم على الصّعيد النّفسيّ والرّوحي، ويبعث فيهم نوازع الإيمان والاتّكال على الله، كما يقوم غيره من رجال الدّين في البلدان الّتي استفحل فيها الوباء.

ثُمّ إنّ هناك أوبئةً كالسّارس والسّرطان والجلطات، وغيرها لايحتاج انتقالها إلى سلوكيّاتٍ لاأخلاقيةٍ وإباحيّةٍ جنسيّةٍ، فهل نشمت فيهم، وهل أرسلها الله عقابًا على المجتمعات الّتي تزداد فيها نسبة الإصابة؟!

فدور رجل الدّين من المفترض أن يكون غير ذلك!

لنفترض أنّ مجتمعًا تفشّت فيه الكوليرا، وهو مرضٌ ينتقل عن طريق التّلوّث الغذائيّ -طريق انتقال شرجيّ فمويّ طبيّ- وليس عن طريق الجنس أوالكحولّ أولحم إلخّنزير، وحدثت عقب تفشيه نسب وفاةٍ عاليةٍ، فهل سينبري شيخنا ورجال الدّين؛ لتقريع المرضى وذويهم بأنّهم خالفوا أمر الله، ولم يتقيّدوا بالنّظافة، ولم ينجزوا نظام صرفٍ صحيٍّ جيّد؛ لذلك ابتلاهم الله بالكوليرا؛ فهذا فهمٌ سلبيٌّ للدّين، بل عليهم أن يقوموا بدورٍ إيجابيٍّ كجمع تبرّعاتٍ لعلاج المرضى، وبثّ الثّقافة الصّحيّة والوقاية من الأمراض؛ استنادًا لأحاديث مشهورةٍ منسوبةٍ للنّبيّ الكريم، ولرجال الدّين كذلك دورٌ في دعم المرضى نفسيًّا ومطالبة السّلُطات المحليّة والإداريّة بتوقي انتشار المرض.. وهذا واجب أيّ إنسانٍ بغضّ النّظر عن عقيدته ودينه؛ فهو التزامٌ إنسانيٌّ وفِطرةٌ حسنةٌ تسري في دماء البشر.

*الكتاب موضوع الدّراسة يرى الإعجاز العلميّ حقيقةً دامغةً -راجع صـ١٠-، وهو لم ينته بعد من صياغة مقدّمة الكتاب، ويرى القرآن معجزةً مستمرّةً خصّ الله بها "النّبيّ محمّد" دون غيره من الأنبياء السّابقين يقول: "إذًا معجزاتهم كتألّق عود الثّقاب، وقعت مرّةً واحدةً، وأصبحت خبرًا يصدّقه من يصدّقه، ويكذّبه من يكذّبه." "٢٩"

تعقيب:

دعـوى إعجـاز الكتـب المقدّسـة لا تخـصّ القـرآن الكـريم عنـد المسـلمين فقـط، بل هي ظاهرةٌ عامّةٌ نجدها في معظم مجتمعات الكتاب المقدّس عنـد المسـيحيّين اليهـود، كمـا في دعـاوَى إعجـاز العهـد القـديم والجديـد مثلًا.

ولقـد فشـلت كلّ هـذه الدّراسـات حـول الإعجـاز العلميّ -وفي كلّ الأديـان حـول العـالم- في اسـتلهام صـناعة حـتّى عـود ثقـابٍ أوعقّـارٍ دوائيٍّ مفيـدٍ انطلاقًا من نصوصٍ مقدّسةٍ!

فهكذا أحكام الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم دون الكتب المقدّسة الأخرى من المفترض أن تكون نتيجة البحث، وليس كمقدّمة ينطلق منها البحث، ثُمّ إنّ الكتاب موضـوع الدارسـة لا يعـرض لأيّ دراسـة مقارنـةٍ مع الكتب المقدّسة الأخرى تتيح للنّابلسي إطلاق حكمٍ بكون الإعجاز العلميّ خاصّة يتفرّد به القرآن الكريم دون غيره.

***إنّ المادّة الأوّليّة من النّصوص القرآنيّة -موضوع دراسة النّابلسي- حول الإعجـاز العلميّ يحـدّدها في "١٣٠٠" آيـةٍ: " ففـي القـرآن الكـريم ألـفٌ وثلاثمائة آيةٍ تتحدّث عن الكون وعن خلق الإنسان، وهذه الآيات تقترب مـن سـدس القـرآن، وإذا كانـت آيـات الأمـر تقتضـي الطّاعـة وآيـات النّهي تقتضي التّرك، فماذا تقتضي آيات الكون؟ إنّها تقتضي التّفكّر؛ لذلك**

ورد في الأثر:" تفكّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة" ولحكمةٍ بالغةٍ لم يفسّر النّبيّ –صلّى الله عليه، وسلّم- هذه الآيات، إمّا باجتهادٍ منه، أوبتوجيهٍ من الله- جلّتْ حكمته-؛ لأنّه لوفسّرها على نحوٍ يناسب فهم من حوله؛ لأنكر هذا التّفسير من سيأتي بعده، ولوفسّرها تفسيرًا يفهمه من سيأتي بعده؛ لانغلق هذا التّفسير على من حوله؛ لذلك تركت هذه الآيات للعصور اللاحقة؛ ليكشف التّقدم العلميّ في كلّ عصرٍ جوانب الإعجاز فيها، وبهذا يكون القرآن الكريم بما فيه من آياتٍ كونيّةٍ معجزةٍ مستمرّةٍ إلى يوم القيامة." "٣٠" التّعقيب:

إذا كانت هذه الآيات -وهي سدس القرآن- غير مفهومة وغير مستوعبة قبل عصر الاكتشافات العلميّة الحديثة، فهذا يعني أنّها نصوصٌ مستغلقةٌ لم يكن لها مفاعيل في العصور السّابقة، وقد فُعِّلت هذه النّصوص الآن في ضوء معطيات العلم الحديث! ترى هل يخاطب النّبي الكريم مجتمعه وأصحابه بلغةٍ وعن أمورٍ لا يفهمونها؟! ولتوضيح ذلك؛ سأسوق عدد من الآيات الّتي يعنيها بقوله: "آيات كونيّة تقتضي التّفكر وآيات الله في الآفاق":

١- "قل انظروا ماذا في السّماوات والأرض وما تُغني الآيات والنّذرعن قومٍ لا يؤمنون" يونس ١٠

٢- "فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبّا ثُمّ شققنا الأرض شقّا فأنبتنا فيها حبًّا وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلاً، وحدائق غلبًا" عبس٢٤-٣٠

٣- "فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذّكر كالأنثى" آل عمران ٣٦

٤- "إنّ في خلق السّماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السّماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" البقرة ١٦٤

فكلّها آيات لا تحتاج إلى شرحٍ، فمن يقرؤها -من النّاطقين بالعربية- يستوعبها؛ فهي تأمّلات في الكون والحياة والليل والنّهار والسّماء والأرض... فليس في الآيات ما يوحي بإعجازٍ علميّ.

فالإعجاز -من منظورٍ إيمانيّ- هو في عمليّة الخلق بحدّ ذاتها، وليس في النّص القرآنيّ الّذي يتناوله الخلق، ويُدعون للتّفكّر فيه!

ببساطة الآية تقول لنا: لنتأمّل السّفن، ونتأمّل إخراج الأرض للبذور بعد المطر؛ لنرى عظمة الله؛ فالآيات المذكورة عملت مفاعيلها، ولا تزال مفاعيلها إلى الآن وللمستقبل، ويجب أخذها في الإطار العام من دون

تفاصيل، فالآيات ليست علميّة، بل هي تأمّليّةٌ فكريّةٌ إيمانيّةٌ واضحة الدّلالة، وتصنيفها كإعجازٍ علميٍّ من باب تحميل الشّيء ما لايحتمل، وسأعرض لنماذج أخرى بعد قليل.

*أعود للتّساؤل الّذي عرضته في بداية الفصل: ما تعريف النّابلسي للعلم، وماذا يقصد به؟

من يحتجّ بالعلم والإعجاز العلميّ عليه أن يحترم العلم كمنظومةٍ يحكمها المنهج العلميّ القائم على الاستنتاج والملاحظة، ويجب فهم العلم في هذا السّياق بمعناه المصطلحيّ الخاصّ، وليس شيئًا آخر.

ولكن النّابلسي مازال على عادة الفلاسفة والأصوليّين والمتصوّفة الإسلاميّين في القرون الوسطى يمطّط مفهوم العلم؛ ليرى علم الحقيقة وعلم الشّريعة وعلم الخليقة، ويجذبنا بذلك نحو دائرة اللاهوت وعلم العقائد الإسلاميّة.

فما يُطلق علية علم الحقيقة هو العلم بالله، وليس العلم بالمعنى الخاصّ، وهو بصورة أدقّ معرفةٌ ذات أبعادٍ كلاميّةٍ صوفيّةٍ حدسيّة، ويُستدل على علم الحقيقة بنصوصٍ قرآنيّةٍ، والاستدلال يتمّ هنا خارجَ إطار الإعجاز العلميّ والبحث -الفرضيّة- المراد إثباتها.

أمّا علم الشّريعة، فهو ليس أكثر من الفقه، وهو علمٌ على سبيل المجاز فقط، مثلما نقول: علم الصّيام وعلم المواريث أو علم أحكام الوضوء.... فهذا يعني المعرفة من وجهة نظرٍ عقائديّةٍ شرعيّةٍ نصيّةٍ أي: الأحكام وأدلتها، وهومبثوث في كتب الفقه، وهذا خارج إطار الإعجاز العلميّ.

وأمّا العلم الأخير من "العلوم النّابلسية" هو علم الخليقة، ويُقصد به العلوم الخاصّة، وهي موضوع البحث والسّرد السّابق؛ لتأكيد بداهةٍ مفقودةٍ في موسوعة النّابلسي للإعجاز، وهي أنّه يؤلّف موسوعة إعجازٍ علميّ، ولا يعرِّف، ولا يضبط مصطلح العلم!

ونتابع: فهدف "علوم الخليقة" هو هزيمة الأعداء والتفوّق عليهم.. أي: التّطبيقات العسكريّة المرتبطة بعقليّة الغزو الّتي يستجليها النّابلسي إلى الحاضر!

فالعلوم تساعدنا في حلّ مشاكلنا بما يحسّن وضع الأفراد والمجتمعات وتخفيف آلام الإنسان والسّيطرة أو الانسجام مع الطّبيعة وتوفير طاقاته، ولا يمنع استخدامها في ردع ظلمٍ، ولكن ليست "علوم الخليقة" أساسًا للغزو ورباط الخّيل وتصنيع جنازير الدّبابات.

فهل نحن أمام منطقٍ للعلم أومنطقٍ للغزو؟!

*النّابلسي يميّز بين نصٍّ قطعيٍّ ونصٍّ ظنّيٍّ؛ فالنّصّ القطعيّ هو الّذي يوافق النّظريات العلميّة، والنّص الظّنّيّ هو مالا يوافق الحقيقة العلميّة بحيث يستوجب تأويله؛ ليوافق.

النّابلسي هنا يتبنّى تفسيرًا -حسب الطّلب- للنّصوص القطعيّة والظّنّيّة!

*ما الضّوابط الّتي يُلزم بها النّابلسي نفسه في بحثه عن الإعجاز العلميّ؟

نتوقّف هنا عند ثالثًا: "ألّا تجعل حقائق القرآن موضوع نظرٍ، بل أن تجعل الحقائق هي الأصل".

وهذا خللٌ منهجيٌّ؛ فالبحث -أيّ بحث- يقوم على الشّكّ المنهجيّ؛ فمن يكتب أيّ بحثٍ علميٍّ، وفي مثالنا هنا "موسوعة الإعجاز العلميّ" عليه ألّا يقرر الحقائق بدايةً؛ فكلّ الحقائق هي موضوع نظرٍ، ومن ثَمَّ-بعد النّقاش والتمحيص- تُثبت هذه "الحقائق" أوتتداعى، ولكن ما يعرضه النّابلسي يمكن تفهّمه -من دون تبريرٍ له- عندما يقرّر رجل دينٍ تقليديٍّ مناقشة أيّ قضيةٍ بما فيها القضايا العلميّة

*يُورد الكتاب ما يلي حول توافق العقل والنّقل: "كنت أحرص على أن أجمع بين حقائق الدّين وحقائق العلم؛ لترسيخ حقيقةٍ غابت عن كثيرٍ من المسلمين، وهي أنّ الّذي خلق الأكوان هو الّذي أنزل القرآن، وأنّ الحقّ دائرةٌ تتقاطع فيها خطوط العقل الصّحيح والنّقل الصّريح

والفطرة السّليمة والواقع الموضوعيّ؛ لذلك لا تغيب الفطرة العلميّة عن كلّ خطابات الدّين."

التّعقيب:

هذه بحدّ ذاتها مقولةٌ مثيرةٌ للجدل، تُعرض في مقدمة الكتاب، ويُطلب من القارئ التّسليم بها، وليست بالضّرورة أن تكون خاطئةً أوصحيحةً ، ولكن المطلوب البرهنة عليها، وليس الاستناد عليها، فما المقصود بالنّقل الصريح؟ وهل هو تفسير متّفق عليه بين عموم البشر بمن فيهم المسلمين عداك عن غيرهم ؟!

هل هو صحيحٌ بنسبة ١٠٠ % أم ٩٩ % على سبيل المثال؟! ومعايير "النّقل الصّريح: "يجب أن تتوافق مع المنهجيّة العلميّة التّاريخيّة" وهل النّقل الصّريح شيءٌ آخر غير العقل الصّريح مادام النّقل يجب أن يُبَرْهَن عليه علميًّا؟!

*يميز الكتاب بين التّفسير العلميّ والإعجاز العلميّ، فيرى أن الإعجاز العلميّ هو: "إخبار القرآن الكريم والّسنّة النّبويّة بحقيقةٍ أثبتها العلم التّجريبيّ أخيرًا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشريّة في زمن الرّسول. ""٣١"

وهذا تعريفٌ سليمٌ كطرحٍ مبدئيّ، لكن لاحظ المنطق المتناقض وإلخّلل المنهجيّ في خُطّة الكتاب: "لا يمكن أن يقع صدامٌ بين قطعيٍّ من الوحي وقطعيٍّ من العلم التّجريبيّ." "٣٢"

التّعقيب:

يمكن للنّابلسي في نهاية بحثه أن يتوصّل إلى نتيجةٍ مفادها أنّه لا يوجد صدامٌ بين قطعيّ الوحي وقطعيّ العلم، وليس هذا فرضيّة ينطلق منها البحث؛ فتعبير:"لا يمكن أن يقع صدامٌ" يجزم بعدم وجود هذا الصّدام في الحاضر أو المستقبل، وهو يفترض استباق وجود حقيقةٍ يضمّنها منهجه ومقدّماته للبحث.

*يتابع النّابلسي:" وقد ألّف غيرواحدٍ من العلماء كتبًا تؤكّد حتميّة توافق العقل مع النّقل." "٣٣"

التّعقيب:

كيف يمكن الانطلاق هكذا من حتميّةٍ في "بحثٍ علميّ " يُعْجِز العلم؟!

كان يمكن أن يقول "العقل -وفق ما أرى- يوافق النّقل، ودليلي كذا وكذا، وهذا مذهب ابن رشد وابن الطّفيل، وغيرهم... ولكن في المقابل ألّف غيرواحد من العلماء كتبًا تؤكّد أولويّة العقل على النّقل، أو أولويّة النّقل أو اصطدام العقل مع النّقل".

ثُمّ إنّ هذه الثّنائيّة استنفذت أغراضها على مدى عشرات القرون؛ فالنّقل نتثبّت منه بواسطة عرضه على العقل، وتفسير النّقل يتمّ بالعقل؟!

فكيف يمكن إدخال العقل كطرفٍ في ثنائيّةٍ مع النّقل؟!

*النّابلسي يرفض النّظريّة العلميّة إذا تعارضت مع دلالةٍ قطعيّةٍ للنّصّ، لاحظ: "إذا وقع التّعارض بين دلالةٍ قطعيّةٍ للنّص ونظريّةٍ علميّة، رفض هذه النّظرية؛ لأنّ النّصّ وحيٌ من الّذي.." "٣٤"

يُورد كذلك: "وإذا وقع التّوافق بينهما كان النّصّ دليلًا على صحّة تلك النّظريّة.""٣٥"

التّعقيب:

ثمَّ اضطرابٌ في المنهج، كيف نرفض نظريّةً علميّة وفقًا لمعايير من خارج العلم؟!

*ثالثًا: نقاش حول نماذج من آيات الله في الإنسان:

إنّ كتاب "موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة" عرضٌ لمعلوماتٍ معروفةٍ نجدها في أيّ موسوعةٍ علميّةٍ عامّةٍ، وهي معلوماتٌ لم ترد لا في القرآن، ولا في السّنّة، لكنّها تدخل في باب تبسيط العلوم، وجعله في متناول العامّة، والحقيقة أنّ النّابلسي يعرضها بسياقٍ شائقٍ

يذكّرني ببرنامج أطفال" اسألوا لبيبة" كنتُ من المدمنين له في أثناء طفولتي؛ لفائدته كونه يطلعك على معلوماتٍ علميّةٍ مبسّطةٍ ومفيدةٍ.

وسأثبت مثالًا واحدًا من مئات الأمثلة الّتي لا تكلِّف صاحبها سوى تصفّح كتابٍ ونقل محتوياته:

*مثال "١":

"وفي شبكيّة العين عشر طبقاتٍ، فيها مئةٌ وأربعون مليون مستقبلٍ للضّوء ما بين مخروطٍ وعصيةٍ، ويخرج من العين إلى الدّماغ عصبٌ بصريٌّ يحتوي خمسة آلاف ليف عصبيّ." "٣٦"

"وكذلك على سطح اللسان تسعة آلاف نتوءٍ ذوقيٍّ؛ لمعرفة الطّعم الحلو والحامض والمرّ والمالح، ثُمَّ تنقل هذا الطّعم إلى الدّماغ، وإنَّ كلّ حرفٍ ينطقه اللسان يُسهم في تكوينه سبع عشرة عضلةً."

هل ذكرت الآيات القرآنيّة عدد نتوءات اللسان الذّوقيّة أو عدد طبقات العين؟! هذا كلامٌ مفيدٌ منقولٌ عن كتب الآخرين، ماعلاقته بالإعجاز العلميّ للقرآن والسّنّة؟!

فالنّابلسي يعرض ما" قالت لبيبة "من المعلومات الّتي ذكرتها أعلاه، ويُورد بعد ذلك آيةً قرآنيّةً يختم بها الفقرة أوالفصل وهي "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" "٣٧"

يمكن تفهّم دعوة القرآن للتفكُّر في خلق الله للإنسان، وعجائب هذا الخلق، ومن ثَمّ استحضار عظمة الخالق. ولو أنّ النّابلسي في مقدّمة كتابه لم يلزم نفسه بمنهجٍ، ولم يلزم نفسه بأن يرينا المعجزة العلميّة النّصيّة لمّا وقفنا على ذلك، أين الإعجاز وفق تعريفه هو للإعجاز؟!

أين الإعجاز الّذي أثبته العلم التّجريبيّ، وثبت عدم إدراكه بالوسائل البشريّة في زمن النّبيّ الكريم، وأين الحقائق العلميّة دليل عالميّة الرّسالة الإسلاميّة.""٣٨"؟!

لوكان عنوان الكتاب "تأمّلات في خلق الكون والإنسان" لما طالبه أحدٌ بشيءٍ، لكن أن يبدأ الكتاب بتعريفاتٍ ومعايير للإعجاز العلميّ وحقائق وعلم وتحدّ...إلخ، ثُمّ ينسى ذلك عقب ذكرها في مقدّمة الكتاب، فهذا يتنافى مع أسس أيّ بحثٍ علميٍّ أوأكاديميّ.

طريقة العرض السّابقة الّذي ذكرتُها تنسحب على معظم كتاب "موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة"، فمن المفترض وفق "منطق إثبات الإعجاز العلميّ" أن يذكر النّابلسي آيةً قرآنيّةً، ويفسّرها وفق دلالات اللغة الصّريحة لا المجازيّة، ثُمّ يذكر معلومةً علميّةً موثّقةً متطابقةً مع دلالة ما تقوله الآية القرآنيّة، ثُمّ يصل بنا إلى نتيجةٍ مفادها: هذا إعجازٌ علميّ للقرآن بالبرهان والدّليل القاطع.
نتابع ما فعل النّابلسي في الفصل التّالي: "وليس الذّكر كالأنثى".

*مثال"٢"

بعد أن يُورد النّابلسي الآية التّالية: "فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى، وليس الذّكر كالأنثى" (آل عمران٣٩)

يسرُد النّابلسي معلوماتٍ علميّةٍ عامّةٍ، منها على سبيل المثال:" يقول أحد العلماء الأطبّاء بعد دراسةٍ طويلةٍ أثبتها في كتبٍ معتمدةٍ: إنّ قامة المرأة في جميع الأجناس أقصر من قامة الرّجل، بل إنّ معدّل الفرق عند تمام النموّ عشرة سنتمترات، وكذلك الوزن، فهل الهيكل العظميّ للمرأة أخفّ من هيكل الرّجل العظميّ"

التّعقيب:

_ الآية القرآنيّة واضحة الدّلالة، ولاتحتمل اللبس بما معناه: لقد ولدتُ يا ربِّ أنثى، وأنت أعلم بذلك، والذّكر ليس كالأنثى، وما تعرضه هو من بداهة الحياة؛ فالذّكر ليس كالأنثى باتّفاق البشر العلماء وغير العلماء، وليس في ذلك إعجاز، وكلٌّ يرى الفروق من وجهة نظره وفي حقله، وقد تحتمل الآية معنى أنّ الذّكر أفضل من الأنثى؛ فيجب النّظر إلى هذا التّفسير وفق المعايير الاجتماعيّة السّائدة آنذاك وفي سياق النّصّ.

_ لا يذكر النّابلسي من هو "أحد العلماء الأطبّاء" المُستشهد به، ولا يذكر الكتب الّتي اعتمدها، فالنّابلسي لا يوثّق معلوماته، وهذا متكرّر كثيرًا في

الكتاب، بل يقول: ورد في أحد الكتب، قال أحد الأطبّاء! في أحد المؤتمرات العلميّة! قال بعض العلماء المتخصّصين في البيئة....إلخ.

_ فمن البدهيّ والمعروف لكلّ النّاس أنّ الرجل أطول من المرأة، وأنّ وزن المرأة أقلّ من الرّجل، وليس في ذلك إعجاز، ولاحاجة للقول قال أحد العلماء الأطّباء.

ويتابع: "إنّ مخّ الرّجل يزيد على مخّ المرأة بمائة غرامز" "٤٠"

لا أدري هل ذكرتِ الآية القرآنيّة ذلك قبل ١٤قرنًا!

كل ما في الأمر أنّ الآية أقرّت بداهةً علميّة واجتماعيّة، ولا تحتمل كلّ هذا الإطناب، فأين الإعجاز؟!

كلامٌ يتلوه كلام....، ويختم الفقرة بآيةٍ قرآنيّةٍ: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون" الرّوم٢١

ومرّةً أخرى الآية القرآنيّة تقرّر بداهةً كون الإنسان يسكن لزوجه، وينمو بينهما مودّةٌ ورحمةٌ "فالآية القرآنيّة تقول بما معناه: تفكّر أيّها الإنسان بذالك. ولكن حشر هذه الآية في الإعجاز العلميّ هو الّذي يُعترَض عليه!

_ أين الآية القرآنيّة أو الحديث النبويّ الّذي يقول: إنّ دماغ الرّجل أكبر من دماغ المرأة بـ١٠٠غ ؟! وهل كان الغرام كمقياس للوزن معروفًا زمن القرآن والنّبي الكريم محمّد-ص- ؟!

فالقرآن ليس كتاب علومٍ، بل هو كتاب هدايةٍ وتوحيدٍ وعِبْرَة، كتاب عقائد يتعرّض لخلق الإنسان والكون بدواعي التّفكّر والإيمان بخالق ليس أكثر من ذلك، ولكن من يقولون بالإعجاز العلميّ يسيئون استخدام القرآن الكريم.

_ في الآية السّابقة هناك فكرةٌ مُستغلِقَة على الفهم -مثار جدل- "هي خلق لكم من أنفسكم" وهو ما لا يقف عنده النّابلسي!

كيف خلق لكم من أنفسكم، ومتى، وأين، ولماذا؟ هل المقصود خلق لكم من أنفسكم أي: من بشرٍ مثلكم، أم المقصود التّذكير بخلق حوّاء من آدم، أم غير ذلك؟ وهنا نحيل مصالح الآية إلى البعد العقائديّ الغيبيّ، وليس إلى البعد العلميّ للكينونة الاجتماعيّة.

*مثال"٣": " اللون الأخضر .. والإعجاز "٤١"

يُورد الكتاب ثلاث آياتٍ قرآنيّةٍ ورد فيها أنّ أهل الجنّة يلبسون ثيابًا لونها أخضر.

١- "متّكئينَ على رَفرَف،خُضْر ، وعبقريّ ،حسان، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان" الرحمن٧٦/٧٧

٢- "عليهمْ ثيابُ سندسٍ، خُضْرٍ، وإستبرقٌ، وحُلّوا أساورَ من فضةٍ، وسقاهمْ ربُّهمْ شراباً طهورا" الإنسان٢١

٣- "أولئكَ لهمْ جنَّاتُ عدن ٍ تجري من تحتهم الأنهارُ، يُحَلّونَ فيها من أساورَ منْ ذهب، ويلبسونَ ثياباً خُضْراًمن سُندسٍ وإستبرقٍ متكئينَ فيها على الأرائك نعمَ الثوابُ وحسُنتْ مرتفقا" الكهف٣١.

ثُمّ يُورد الكتاب الانطباعات الشّعوريّة و"النّفسيّة عند رؤية الإنسان للون الأخضر "لكن اللون الّذي يبعث السّرور داخل النّفس البشريّة، ويثير بواعث البهجة فيها هو اللون الأخضر، لذلك جعل الله النّبات أخضر اللون، هذه المساحات الخضراء في الأرض تبعث في النّفس البهجة، لذلك اختيرت ثياب الجرّاحين من اللون الأخضر؛ لأنّ المريض -وهو على وشك أن تُجرى له العمليّة- يشعر بالبهجة، وهو يرى اللون الأخضر، ومما يلفت النّظر أنّ الله -سبحانه وتعالى- ذكر أهل الجنّة، وذكر ما في الجنّة من نعيمٍ، وورد اللون الأخضر في هذه الآيات" انتهى.

التّعقيب:

_ إنّ القول: إنّ اللون الأخضر يبعث في النّفس البهجة؛ لذلك جعله الله لون النّبات معلومةٌ قديمةٌ قدم الإنسان ليست محلّ خلافٍ بين البشر، وهي ليست بمعجزةٍ، أو إخبارٍ عن غيب.

_ أمّا كون ثياب أهل الجنّة خضراء، فهو كنايةٌ عن النّعيم والرّاحة "النّفسيّة الّتي يعيشونها؛ فإنَّ الجمال والرّاحة "النّفسيّة تأتي من التناسق بين الألوان وانسجامها، وليس من كون الثياب بلونٍ واحد، تخيَّل كلّ النّاس في شارع ما يلبسون ثيابا خضراء فقط، إنّ هذا لن يشعرك بالبهجة والطمأنينة، بل سيكون العكس هو الصّحيح، فكلّ الألوان زيّنت للنّاس، والآيات القرآنيّة المذكورة لاتعني أنّ المؤمنين لا يلبسون ثيابًا بألوان أخرى، وهذه الآيات لم ترد في سياق إعجازٍ وتحدٍّ!

_النّابلسي يُورد آيات قرآنية ورد فيها أنّ أهل الجنّة يلبسون ثيابًا بلونٍ أخضر، ثُمّ يذكر معلوماتٍ عن الألوان واللون الأخضر معروفة لطلّاب المدارس الابتدائيّة، ثُمّ يقول لنا تأمّلوا هذا الإعجاز البديع! ببساطةٍ: أين الإعجاز؟!

*<u>مثال "٤"</u>- تحت عنوان علاقة الغضب بالصّحة "٤٢"

يُورد الكتاب معلوماتٍ عن الانعكاسات السّلبية للغضب على الصّحّة، وهوممما يعرفه عموم النّاس قديمًا وحديثًا بالتّجربة قبل

القراءة، ويُورد معلوماتٍ عن دور الغضب في رفع السّكّري وشحوم الدّم والإمساك المزمن وإضعاف المناعة، ثُمّ يُورد حديث أبي هريرة: إنّ رجلاً قال للنّبي-ص-: أوصني، قال: "لا تغضب"، فردَّدَ مرارًا، قال: لا تغضب" رواه البخاريّ

أين الإعجاز، وكلّ النّاس يعرفون أضرار الغضب على الصّعيد النّفسيّ والجسديّ وفائدة ضبط النّفس؟!

*مثال "٥"- تحت عنوان "أثر التّدخين في القلب والشّرايين"
يُورد الكتاب معلوماتٍ علميّة عامّةٍ لها دورٌ تثقيفيٌّ طبّيٌّ حول الجهاز الوديSympathetic nervous system ودوره في حالات إلخّطر، وحول مفاعيل التّدخين والنيكوتين في الجسم وتحريضه للجهاز الودي، وأثر ذلك في حدوث الجُلطة القلبيّة والدّماغيّة، وكلّ ذلك معروفٌ ومعلومٌ، ويمكن وضع الصّفحات ٤٢١-٤٢٢-٤٢٣ في كتاب تثقيفٍ صحيّ، وليس في كتاب عقائدَ وإعجازٍ علميّ؛ لأنّها ببساطةٍ تسرد هذه المعلومات دون ذكر أيّ نصٍّ أو آيةٍ قرآنيّةٍ أوحديثٍ نبويّ، وأمّا ختامها في صـ٤٢٤ فهو آية قرآنيّة " ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة" هل هذا إعجاز؟!

وللتّذكير لم ترد كلمة دخّان وتدخين في القرآن، ولم ترد كلمة جُلطة قلبيّة أودماغيّة، ولم ترد حتّى كلمة شرايين أو أوردة، ولم ترد كلمة قلب بمعناها الطّبّيّ التّشريحيّ فأين الإعجاز العلميّ؟!

وأمّا الآية القرآنيّة "ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة" فهي آيةٌ واضحة الدّلالة، صحيحة المعنى تحضّ النّاس على تجنّب الضّرر والمخاطر.

ولكن أن تكون الآية ذات معاني إيجابيّة شيءٌ، والقول: إنّها إعجازٌ شيءٌ آخر، فهذه الآية من آيات البداهة الكونيّة في القرآن الكريم، وكلّ النّاس يعرف بالفطرة أنّها جاءت في صياغةٍ عامّةٍ، ويوجد ما يشابهها في كلّ الشّرائع الدّينية وغير الدّينية قبل وبعد الإسلام.

رابعًا: مغالطات علميّة:

*مثال أوّل

يُورد النّابلسي: "قال العلماء: معظم حالات السّكّري تأتي عقب انفعالٍ شديدٍ؛ لأنّ الإنسان حينما يغضب تأمر الغدّة النّخاميّة -وهي ملكة الغدد- الكظر؛ فيعطي أمرًا للكبد بطرح كميّةٍ كبيرةٍ من السّكّر؛ فيزداد السّكّر فجأةً في الدّم، فيعطيه لزوجةً؛ لذلك كان الدّاء السّكّري غالبًا ما يأتي عقب انفعالٍ شديدٍ جدًّا" "٤٣"

لا يخبرنا النّابلسي من هم العلماء الّذين قالوا، ومتى، وما الدّراسة الّتي اعتمد عليها!

_هناك فرقٌ كبيرٌ بين أنّ عبارة "يرتفع سكّر الدّم عقب انفعالٍ شديدٍ" وهذا صحيح، وبين عبارة "معظم حالات الدّاء السّكّري تأتي عقب انفعالٍ شديد".

فارتفاع سكر الدّم عقب الانفعال هو مؤقتٌ ضمن الآليّات الفيزيلوجيّة وارتكاسات الجسم للشدّة "النّفسيّة، ولا يؤدّي إلى إصابةٍ بالدّاء السّكّري.

فالدّاء السّكّري: هو ارتفاعٌ دائمٌ ومستمرٌّ لسكّر الدّم، وليس ارتفاعًا وقتيًّا، ولم يثبت العلم أنّ الشّدّة "النّفسيّة سببٌ للإصابة بدّاء السّكّري، ولكن من أسباب ارتفاع سكّر الدّم عند السكّريّين والطبيعيّين الشّدّة "النّفسيّة: فأسباب الدّاء السّكّري غير واضحةٍ بعد، وهو ظاهرةٌ معقّدةٌ، وهناك نظريّات وعوامل وراثيّة مناعيّة غذائيّة بيئيّة... إلخّ وقد يعيش الإنسان طوال عمره عصبيّ المزاج ومنفعل دون أن يكون مصابًا بالدّاء السّكّري.

*مثالٌ ثانٍ:

يُورد النّابلسي المعلومة التّالية: "فالحقد والانفعال أسبابها الشّرك" "٤٤"

التّعقيب: إنّ الأشخاص الّذين يوسمون بالحقوديّين، نجدهم في كلّ المجتمعات وكلّ الأديان وكلّ الأعراق، ويمكن أن نعزو ذلك لأسبابٍ بيولوجيّةٍ وتربويّةٍ وثقافيّةٍ، وربّما الاستعداد الوراثيّ، فليس الشّرك بمسبّب للحقد والانفعال، ولوكان ذلك صحيحًا لكان سكّان الصّين واليابان والأوربيّين وهم ممّن يصنفون -من وجهة نظرٍ دينيّةٍ إسلاميّة تقليديّة بالمشركين- أكثر المجتمعات حقدًا وتعاسةً وعدوانيّة!

- ما نقول عن الّذي يفجّر نفسه في سوق تجاريّ، أوفي جنازةٍ، أو في مأتمٍ، وقد قطع تذكِرةً مضمونةً إلى الجنّة؟!

- هل عادة الثّأر أكثر تفشّيًا في المجتمعات العربيّة الإسلاميّة العشائرية منها مقارنة بالمجتمعات الاسكندينافيّة معاقل الشّرك ؟!

ثُمَّ ماذا يقصد بالشّرك والمشركين على وجه التّحدّيد؟!

فثمَّة جماعات وتيارات إسلامية تُعتبر كثيرًا من المسلمين في حكم المشركين؟!

وإذا كان يُقصد بالمشركين عَبَدَة الأصنام الحجريّة والخشبيّة، فهؤلاء تقريبًا قد انقرضوا، وربّما من الحكمة أكثر أن يُورد النّابلسي على سبيل المثال: "قد يكون الإيمان والتّسليم بقضاء الله مفيدًا في تخفيف التّوتر النّفسيّ والقلق".

*مثالٌ ثالث:

يُورد النّابلسي المعلومة التّالية: "فإنّ هشاشة العظام، وسرعة انكسارها وضعف البنية العظميّة سببها النّوم ما بعد طلوع الشّمس." "٤٥"

وجاء كلامه في سياق الكلام عن أنّ الأشعّة فوق البنفسجيّة تحرّض الجلد على تصنيع Vitamin D إنّ هشاشة العظم Osteoporosis لا يتعلّق أساسًا بعوز فيتامين D، بل هو اضطراب هرمونيّ يتعلّق بالتّوازن بين إلخلايا بانيات العظم وكاسرات العظم، وعلاجه علاجٌ هرمونيّ بالإستروجين والكالستونين وأدوية أخرى. فالأسباب المؤهّبة له كثيرة، وليس من بينها نقصٌ أوقلّةٌ أو زيادة التّعرّض للشّمس، ولا يُورد النّابلسي-كعادته- أيّ مرجعٍ علميّ يوثّق المعلومة، فالشّيخ النّابلسي لا يميّز بين تخلخل العظام Osteoporosis وتلين العظام، فنحن أمام فبركةٍ؛ لنصل لنتيجةٍ مفادها:" إنّ قرآن الفجر كان مشهودًا"، وأنّ دليل إعجاز هذه الآية أنّ أشعّة الشّمس تصنع فيتامين D.

ولذلك عليكم أن تصلّوا الفجر حاضرًا، وتتلوا القرآن، ولا تضحوا في نومكم.

***مثالٌ رابع:**

يُورد النّابلسي المعلومة التّالية: "أثبتت الدّراسات الطّبيّة الحديثة أنّ الإنسان الّذي ينام ساعاتٍ طويلةٍ، وعلى وتيرةٍ واحدةٍ يتعرّض للإصابة بأمراض القلب بنسبٍ عاليةٍ جدًّا" "٤٦"

وهذه معلومةٌ ينفرد بها الشّيخ النّابلسي، ومرّةً أخرى نطالب بقرائن التّوثيق العلميّ.

obeikandl.com